الخليج العربي..... المجلد الحادي والعشرون..... العدد (٣-٤) ١٩٨٩
مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ـ الجمهورية العراقية

من اعلام البصرة في الادارة والسياسة
الاحنف بن قيس التميمي

نجلة قاسم الصباغ
كلية الاداب ـ جامعة الموصل

مقدمة :

يشمل البحث دراسة عن احدى الشخصيات السياسية في التاريخ في سجاياه ومزاياه الانسانية ومكانته الاجتماعية. وقد عاش الاحنف في البصرة بين العصرين الراشدي والاموي ـ واصبح زعيما لقبيلة تميم فيها، وكان له اثر كبير على الاحداث السياسية في تلك الفترة نظرا لشرفه وسيادته التي وصل اليها في العراق. ولحكمته ورجاحة عقله وبلاغته التي برزت في مجالسه، وجرأته في قول الحق امام الخلفاء والولاة وايثاره المصلحة العامة على مصلحته الشخصية ازاء ذلك احبه الناس واجلّوه وشرفوه واكرمه الخلفاء والولاة.

وشمل البحث دراسة في توضيح شخصيته، ثم مدى اسهاماته في حروب التحرير في جبهة خراسان، وموقفه السياسي من الاحداث خلال موقعتي الجمل وصفين. ثم دوره السياسي خلال العصر الاموي. واخيرا رأيت ان لامناص من ذكر شيء من حكمه واقواله التي امتلأت بها كتب الادب. وارجو ان اكون قد وفقت في ابراز شخصية مهمة ونادرة طالما انفرد العراق بامثالها مفاخرا في التاريخ.

شخصيته :-

ان جميع الروايات التي ترجمت له ذكرت لنا ان اسمه الضحاك او صخر[1]، وفي رواية منفردة ان اسمه الحارث[2]، ورغم ان الروايات تذكر اسم الضحاك قبل صخر الا ان الاسم الثاني قد يكون الصواب حيث ورد في رواية للطبري ان الاحنف (عندما كان يحاصر مدينة مرو) كتب كتابا الى مرزبانها اوله: (من صخر بن قيس امير الجيش: . .)[3].

- اما نسبه فهو ابن قيس بن معاوية بن حصين بن حفص بن عبادة بن النزال بن مرة ابن عبيد بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

ويكنى اباه (ابا مالك) وقد قتله بنو مازن قبل الاسلام، اما امه فتدعى حبي بنت عمرو بن ثعلبة من بني أد من قبيلة باهلة[4].

- اما الاحنف فهو لقب له لانه كان احنف الرجلين، ويبدو ان المواهب كانت بادية عليه منذ صغره، فيذكر ان امه كانت تلعبه وتقول:

والله لولا حنف برجله ما كان بالحي غلام مثله[5]

وكان له من الذكور ابن واحد اسمه بحر وبه كني[6].

ولم يحدد المؤرخون سنة ولادته، وقد ذكر ابن عساكر انه ادرك الجاهلية[7] واسلم في عصر الرسول (ص) ولكنه لم يره[8] فحين وجه الرسول (ص) الى قومه بني سعد رسولا يدعوهم الى الاسلام نصحهم الاحنف بالاستجابة بقوله:

---

(١) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٦٦.
ابن عبد البر - الاستيعاب ج ١ ص ١٤٥.
ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٣.
(٢) ابن حجر - تهذيب التهذيب ج ١ ص ١٩١.
(٣) تاريخ الامم والملوك - ج ٤ ص ٣١٠.
(٤) ابن قتيبة - المعارف ص ٤٢٣ - ابن عبدالبر - الاستيعاب ج ١ ص ١٤٥.
(٥) ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٣ الحنف في الرجل ان تقبل كل واحدة بابهامها على الاخرى.
(٦) ابن سعد - الطبقات ج ٧ ص ٦٦.
(٧) تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ٢٦، ابن كثير- البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٦.
(٨) ابن العماد - شذرات الذهب ج ١ ص ٧٨.

«انه يدعوكم الى الاسلام والى مكارم الاخلاق وينهاكم عن ملائمها»[9] فاسلم واسلم قومه باشارته رغم حداثة سنه، وقد روي ان الرسول (ص) حين بلغه مقالة الاحنف دعا له بقوله: «اللهم اغفر للاحنف»[10]. وقد ثبت على الاسلام رغم ارتداد عدد كبير من قومه في عهد الخليفة ابي بكر الصديق (رض) حيث روى ابن قتيبة[11]، ان الاحنف ذهب برفقة عمه المتشمس بن معاوية الى مسيلمة الكذاب ليستمعا منه، فلما خرجا من عنده قال الاحنف لعمه: «كيف تراه - فقال: اراه كذابا» وفي رواية اخرى[12] ان الاحنف قال عنه: «ماهو بنبي صادق ولا بمتنبيء حاذق» وقد يكون ثباته على الاسلام ذا اثر حاسم على صمود كثير من ابناء قبيلة تميم امام تيار الردة[13].

- وكان ثقة مأموناً قليل الحديث، روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب وابن عباس وعبد الله بن مسعود وابو ذر الغفاري[14] كما روى عنه الحسن البصري وعروة بن الزبير وابو العلاء بن الشخير (رضي الله عنهم) وطلق بن حبيب[15]، وكان من سادات التابعين[16] وعده ابن سعد في الطبقة الاولى من اهل البصرة[17].

وتتفق اغلب المصادر على انه كان رئيس قبيلة تميم في البصرة إذ وصفه الخليفة عمر (رض) عندما سمع كلامه بانه سيد تميم[18] وقال عنه ابن عساكر إنه سيد قومه[19] وكان سيد قومه بني تميم في البصرة في خلافة معاوية حيث سأله قائلا: «بماذا سدت قومك ولست باسنهم ولا اشرفهم»[20].

---

(٩) ابن قتيبة - المعارف ص ٤٢٣، ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٣.
(١٠) ابن سعد - الطبقات ج ٧ ص ٦٦، ابن الاثير - اسد الغابة ج ١ ص ٥٥. ابن حجر - تهذيب التهذيب ج ١ ص ١٩١.
(١١) المعارف - ص ٤٢٤.
(١٢) الشريف الرضي - امالي المرتضى، ج ١ ص ٢٩٢.
(١٣) محمود شيت خطاب - قادة فتح بلاد فارس ص ٢١٩.
(١٤) ابن سعد - الطبقات، ج ٧ ص ٦٦، ابن عساكر - تهذيب ج ٧ ص ١٣.
(١٥) ابن عساكر - تهذيب، ج ٧ ص ١٣، ابن حجر - تهذيب التهذيب، ج ١ ص ١٩١.
(١٦) ابن عبد البر - الاستيعاب ج ١ ص ١٤٥، ابن العماد - شذرات ج ١ ص ٧٨.
(١٧) الطبقات الكبرى، ج ٧ ص ٦٦.
(١٨) المصدر نفسه ج ٧.
(١٩) ابن عساكر - تهذيب ج ٧ ص ١٤.
(٢٠) ابن عساكر - تهذيب، ج ٧ ص ١٦.

وقد شرفت منزلته عند العامة والخاصة، واستحوذ على محبة الناس وتقديرهم واحترامهم، وقد رُوي ان اخت الخليفة معاوية عندما سمعت الاحنف ذات مرة يتكلم معه بشدة سألته قائلة: «يا امير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد فقال لها الخليفة: «هذا الذي غضب لغضبه مائة الف سيف من بني تميم لايدرون فيما غضب»[٢١]، وكان ذا قدرة على ضبط النفس، حريصا على تكوين شخصية متكاملة مؤثرة قلما يجود بامثالها الزمن. واقواله تكفي مدرسة يتعلم منها الفرد الاداب الاجتماعية[٢٢].

وكان من بين الشخصيات القليلة التي اتصفت بالحلم حينئذ، فقال عنه ابن كثير: (كان سيدا مطاعا شريفا وكان يضرب بحلمه المثل وله اخبار في حلمه سارت بها الركبان[٢٣]، وقد رُوي عنه انه تعلم الحلم من قيس بن عاصم المنقري[٢٤] وقال عنه المدائني انه ساد بحلمه[٢٥]، واكثر الرواة على رجحان عقله فقيل: «ما وزن عقل الاحنف بعقل احد الا وزنهُ»[٢٦] وكان من اعظم الناس سلطانا على نفسه وقد تأثر باخباره الخليفة هشام بن عبد الملك فطلب من خالد بن صفوان ان يصفه له فقال: (كان لايحرص ولايجهل ولايدفع الحق اذا انزل به خضع لذلك. . . وكان يأتي الخير ويتوقى الشر. . .» وفي وصف آخر له: «كان الاحنف اعظم من رأينا وسمعنا غير الخلفاء سلطانا على نفسه فيما اراد حملها عليه وكفها عنه. . . ولم ير ولم يسمع باحد ابصر بالمحاسن والمساوىء منه. . . .»[٢٧].

وقد اوجز الاحنف سبب سيادته للخليفة معاوية حين سأله بقوله: (اني لا اتكلف ما كفيت ولا اضيع ما وليت ولو ان الناس كرهوا شرب الماء ما طعمته»[٢٨]، فاخلاقه وصفاته هي التي سودته على قومه، فحين قالت له بنو تميم مرة: « شرفناك وسودناك، رد عليهم بقوله: (فمن شرف شبل بن معبد) وكان هذا رجلا من قبيلة بجيلة ليس له عشيرة، واوضح دليل على سمو منزلته ما ذكره الجاحظ بان اشراف البصرة كلما

---

(٢١) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان، ج ٢ ص ١٨٧.
(٢٢) نذكر بعضا منها في آخر البحث.
(٢٣) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٣٢٦.
(٢٤) الجاحظ ـ البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٠٥، ابن عساكر ـ تهذيب، ج ٧ ص ١٦.
(٢٥) البيهقي ـ المحاسن والمساوىء، ج ١ ص ١٦٢.
(٢٦) ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٦.
(٢٧) المصدر نفسه والصفحة.
(٢٨) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٩.

تفاخروا مع اشراف الكوفة قالوا لهم مع ما قالوه: «هل في تميم الكوفة مثل الاحنف ابن قيس»[٢٩].

وكان الاحنف قنوعا يرفض جوائز الخلفاء والامراء ويجود بها لغيره، فقد عرض عليه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) جائزة حين وفد اليه مع اهل العراق وعرض عليه باسمهم حاجات بلده، ولكنه رفض الجائزة قائلا: «يا امير المؤمنين والله ما قطعنا الفلوات ودأبنا الروحات والعشيات للجوائز، وما حاجتي الا حاجة من خلفت»[٣٠] فهو يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الشخصية، ومثلها حين كان يقاتل اهل خراسان وسار الى خوارزم ترك ابن عمه في بلخ فأهداه اهلها هدايا من الذهب والفضة والدراهم والمتاع لتكون للامير، فحملها الاحنف الى عبد الله بن عامر الذي قال له: «اقبضه يا ابا بحر فهي لك» فرد عليه قائلا «لا حاجة لي فيه»[٣١].

وكان ذكيا واسع الادراك حاضر البديهة مقنعا في حججه من خلال معالجته الامور وتسوية المشاكل، ففي رواية لهشام بن عتبة ان الاحنف جاء الى قوم ليفاوضهم في دم فطلبوا ان يدفع لهم ديتين لكل قتيل فوافقهم ثم قال لهم: «... ان الله عز وجل قضى بدية واحدة، وان النبي (ص) قضى بدية واحدة، وان العرب تتقاضى بينها بدية واحدة، وانتم اليوم تطالبون واخشى ان تكونوا غدا مطلوبين فلا ترضى الناس منكم الا بمثل ما شئتم على انفسكم قالوا: فردها الى دية واحدة»[٣٢].

وبلغت رجاحة عقله وصواب رأيه ان قطري بن الفجاءة احد زعماء الخوارج الذي كان الاحنف معاديا لهم انه كان يدس احد رجاله ليحضر مجلس الاحنف ويجري بذكره امامه لكي يستفيد من رأي الاحنف في موضوع اهمه[٣٣].

وفي الجانب الديني قيل عنه انه كان مؤمنا ورعا كثير الصلاة في الليل كثير الصوم[٣٤].

وذكرت الروايات انه لم يكن حسن الوجه والجسم فقيل عنه انه كان نحيل الجسم صغير الرأس منخسف العينين اعورا اصيبت عينه اثناء تحرير سمرقند[٣٥] وقد وصفه

---

(٢٩) رسائل الجاحظ، ج ١ ص ١١٧.
(٣٠) ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ١٥.
(٣١) الطبري - تاريخ، ج ٤ ص ٣١٣ - ٣١٤.
(٣٢) ابن عساكر - تهذيب ج ٧ ص ٢٢.
(٣٣) الجاحظ - رسائل ج ١ ص ٢٢٨.
(٣٤) ابن عساكر - تهذيب، ج ٧ ص ١٩.
(٣٥) ابن حبيب - المحبر، ص ٣٠٣.

الجاحظ بقوله: «كان أصعل الرأس احجن الانف اغضف الاذن متراكب الاسنان اشدق مائل الذقن ناتىء الوجنة باخق العين خفيف العارضين احنف الرجلين ولكنه اذا تكلم جلى عن نفسه»[٣٦]. ويتفق هذا الوصف مع قول الخليفة عمر (رض) له حين قابله: «ويحك يا احنف لما رأيتك ازدريتك فلما نطقت قلت لعله منافق صنع اللسان فلما اختبرتك حمدتك»[٣٧] ولكن محامده وتأثيره على الناس جعلت الشاعر يقول فيه:

اذا الابصار ابصرت ابن قيس ظللن مهابة منه خشوعا[٣٨]

ويؤخذ عليه موقفه السلبي من المرأة فقد ذكر البيهقي ان الاحنف بُشر بجارية فبكى فقيل ما يبكيك قال: لِمَ لاابكي وهي عورة ويكاؤها عبرة وهديتها سرقة ونضرتها البكاء ومهنؤها لغيري»[٣٩]، ويؤيد ذلك اتجاهه في مناقشته ام المؤمنين عائشة حين قدمت الى البصرة يوم الجمل[٤٠]. هذا الى جانب وصيته ان لاتخرج وراء جنازته امرأة[٤١].

اسهامه في حروب التحرير

كان اول اشتراك للاحنف بن قيس في حروب التحرير ـ في جنوب العراق ـ حين قام العلاء بن الحضرمي عامل البحرين بهجوم على بلاد فارس عبر الخليج العربي دون اذن الخليفة عمر بن الخطاب (رض). فطوق الفرس جيش المسلمين وطلب العلاء المدد من الخليفة الذي عزله واوعز الى والي البصرة عتبة بن غزوان إرسال جيش لانقاذ المسلمين، فارسل عتبة جيشا من اثني عشر الف مقاتل يرأسه عدد من القواد من بينهم الاحنف بن قيس، فانقذ هذا الجيش جند العرب المسلمين المحاصر في الاحواز ثم عادوا الى البصرة[٤٢].

---

(٣٦) البيان والتبيين، ج ١ ص ٧٣.
(٣٧) ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ٢٦.
(٣٨) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٦، البيهقي ـ المحاسن والمساوىء، ج ١ ص ١٥٥.
(٣٩) المحاسن ـ ج ٢ ص ٣٨١ تحت عنوان مساوىء من كره البنات.
(٤٠) المصدر نفسه، ج ١ ص ٧٧.
(٤١) ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ٢٧.
(٤٢) الطبري ـ تاريخ، ج ٤ ص ٨٠ ـ ٨١.

وفي ولاية ابي موسى الاشعري على البصرة، ارسل وفدا الى الخليفة عمر (رض) وكان الاحنف من بين رجال الوفد ولم تذكر الرواية مهمة الوفد الا انها توضح بان اعضاء الوفد عندما حضروا مجلس الخليفة تكلم كل فرد منهم بما يخصه الا الاحنف فانه قدم للخليفة تقريرا مفصلا عن احوال البصرة واحتياجاتها بكلام بليغ قال فيه: «يا امير المؤمنين فأن اهل مصر نزلوا منازل فرعون واصحابه وان اهل الشام نزلوا منازل قيصر وان اهل فارس نزلوا منازل كسرى ومصانعه... تأتيهم ثمارهم قبل ان تبلغ وان اهل البصرة نزلوا في ارض سبخة زعقة نشاشة لايجف ترابها ولا ينبت مرعاها طرفها في بحر اجاج والطرف الاخر في الفلاة لايأتينا شيء الا في مرىء النعامة، فارفع خسيستنا وانعش ركيستنا وزد في عيالنا وضع درهمنا واكثر قفيزنا ومر لنا بنهر نستعذب منه»[٤٣] وقد اعجب الخليفة بكلامه وببلاغته ولام اعضاء الوفد وقال عنه «هذا والله السيد» ولكنه اراد ان يتثبت من صدقه فاستبقاه عنده بالمدينة لمدة سنة ليختبره[٤٤]، وبعد ان تأكد من كفاءته ورجاحة عقله كتب الى واليه على البصرة ان يقرب الاحنف ويستشيره وفي رواية[٤٥] ان الخليفة كتب الى والي البصرة يقول: «الاحنف سيد اهل البصرة فما زال يعلو من يومئذ».

وقد شهد فتح تستر وقدم الى الخليفة بخبر فتحها[٤٦]، وقد اوفد قائد الجيش ابا سبرة الاحنف في وفد الى المدينة برفقة الهرمزان الذي اسره[٤٧].

وعندما تمرد اهل سوق الاحواز كتب الخليفة عمر (رض) الى والي البصرة ان يرسل اليه وفدا من صلحاء اهل المدينة ليستفهم منهم الامر، فقدم اليه الوفد وكان فيهم الاحنف، فقدمه للكلام دون الاخرين بقوله: «انك عندي مصدق وقد رأيتك رجلا» وسأله ان كان التمرد بسبب الظلم ام بغير ذلك، فاجابه بقوله «لا بل لغير مظلمة والناس على ماتحب» ثم شرح السبب الحقيقي للتمرد وهو اوامر الخليفة بايقاف العمليات الحربية في بلاد فارس والاقتصار على المناطق المحررة في الوقت الذي لازال

---

(٤٣) ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ١٤-١٥، التوحيدي - الامتاع، ج ٣ ص ٥٩، البلاذري - فتوح ص ٣٥٠ يذكر ان الخليفة استجاب لهذه المطالب فالحق ذراري اهل البصرة بالعطاء وامر واليها بان يحفر لهم نهرا.

(٤٤) ابن سعد - الطبقات، ج ٧ ص ٦٧.

(٤٥) ابن الاثير - اسد الغابة، ج ١ ص ٥٥.

(٤٦) ابن عساكر - تهذيب، ج ٧ ص ١٣، القزويني - اثار البلاد، ص ١٧٠ تستر قصبة الاحواز.

(٤٧) الطبري - تاريخ، ج ٤ ص ٨٧.

الملك الفارسي حيا ويحث ابناء قومه على حرب العرب ثم طلب الاحنف من الخليفة ان يأذن للجيوش العربية بالاستمرار بالفتح والقضاء على الملك الفارسي وبقايا دولته، فاستصوب الخليفة قوله قائلا: «صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حقه»[٤٨] ويوضح لنا ذلك مدى قابليته العسكرية (السوقية)[٤٩] وقد امر الخليفة بالانسياح في ارض فارس بعدما واتته انباء اجتماع الفرس في نهاوند.

وقد شارك الاحنف بن قيس مع ابي موسى الاشعري في فتح قم بعد الانصراف من موقعة نهاوند، ثم وجهه ابو موسى على رأس جيش الى مدينة قاشان ففتحها عنوة[٥٠].

وكان الملك الفارسي قد انتقل الى الري بعد انهزام الفرس في جلولاء ثم الى اصبهان ومنها الى كرمان ثم استقر في خراسان في مدينة مرو التي تقع اقصى البلاد، وبدأ فيها يحرض الفرس على الوثوب ضد العرب المسلمين فاستجابوا له ووثب اهل فارس واهل الجبال والفيرزان ونكثوا العهود[٥١] فكان ذلك دافعا للخليفة عمر بن الخطاب (رض) لان يأمر باستمرار العمليات الحربية من قاعدتي الكوفة والبصرة، وقد اسندت الى الاحنف بن قيس قيادة احدى الفرق الحربية المتوجهة لفتح خراسان، فسلك طريق مدينة تدعى مهرجانقذف[٥٢] نحو اصبهان ثم دخل خراسان من ناحية الطبسين فافتتح مدينة هراة عنوة وعين صحار بن فلان العبدي واليا عليها، ثم وجه الى نيسابور مطرف بن عبد الله الشخير والي سرخس[٥٣] الحارث بن حسان، ثم توجه بجيشه الى مرو الشاهجان، ولما علم يزدجرد بتوجه الجيش العربي الاسلامي انتقل من مرو الشاهجان الى مروالروذ وبدأ بتدبير خطة لمواجهته، فكتب الى خاقان الترك وملك الصغد وملك الصين رسائل يطلب فيها نجدة حربية، ولكن الاحنف بن قيس

---

(٤٨) الطبري ـ تاريخ، ص ٧٨، ٨٨، ٨٩.

(٤٩) خطاب ـ قادة فتح بلاد فارس، ص ٢٤٥.

(٥٠) البلاذري ـ فتوح، ص ٣٠٨، ابن حزم ـ جمل فتوح الاسلام ص ٣٤٦، القزويني ـ اثار البلاد ص ٤٤٢ قم ـ بين ساوة واصفهان ـ وقاشان ـ بين قم واصفهان.

(٥١) الطبري ـ تاريخ، ج ٤ ص ١٦٧.

(٥٢) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ٥ ص ٢٣٣ ان مدينة مهرجان قذف تقع شرقي حلوان في الطريق الى همدان، اما الطبس فهي مدينة تقع بين اصفهان ونيسابور، القزويني ـ اثار، ص ٤٠٦.

(٥٣) القزويني ـ اثار البلاد، ص ٣٩٠ سرخس مدينة بين مرو ونيسابور. الاصطخري ـ المسالك ص ١٥٤.

لم يمهله وقد وصلته امدادات حربية من قاعدة الكوفة فتوجه الى مروالروذ بعد ان استخدم على مرو الشاهجان حاتم بن النعمان الباهلي، فحين بلغ نبأ توجه الجيوش الاسلامية الى يزدجر في مروالروذ خرج منها قاصدا مدينة بلخ[٥٤] فدخل الاحنف بجيشه مدينة مروالروذ ثم وجه جند الكوفة طليعة امامه الى مدينة بلخ فالتقوا مع يزدجرد واعيانه في معركة انهزم فيها يزدجرد وعبر بقواته نهر جيحون.

ويبدو ان الاحنف بقي في مدينة مروالروذ لتدبير شؤونها، ولكنه لم يترك امر يزدجرد فارسل اليه فرقة من جنده هزمته ثم توجه بمن معه من الجيش وانضم الى جند الكوفة في مدينة بلخ وكتب الى الخليفة باخبار الفتح والنصر فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب (رض) اثنى على الاحنف بقوله: «هو الاحنف وهو سيد اهل المشرق المسمى بغير اسمه»[٥٥].

ورغم ان المصادر التاريخية لاتفصل لنا عن طبيعة المعارك. ولكن يبدو انها كانت صعبة لما تتصف به هذه المناطق البعيدة في الشرق والجنوب الشرقي من بلاد فارس من طبيعة ومناخ صعب لذا كان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد اوقف العمليات الحربية قبل ذلك وقد يوافق ذلك ماروي ان الخليفة كتب الى الاحنف طالبا ايقاف التقدم وعدم عبور نهر بلخ[٥٦]. ولعل الخليفة رأى ان انتشار الجند في مناطق بعيدة مع وجود مناطق اخرى لم يتم فتحها قد يؤدي الى تطويق الجيش العربي الاسلامي وتعرضه للخطر.

وقد استجاب ملوك الصغد وخاقان الترك لرسائل الاستنجاد التي ارسلها اليهم يزدجرد فجمعوا له جموعا من جيوشهم وتوجهوا الى نهر بلخ وعبروه متوجهين نحو الجيش العربي الاسلامي المعسكر في مروالروذ، ويبدو ان اعدادهم كانت كبيرة حيث يقول ابن عساكر: «اجتمعت له جموع الاعاجم بمروالروذ فجاءه ما لاقبل له به»[٥٧]، وكان الجند العربي الاسلامي اقل عددا من القوات التي عبرت الحدود حيث كان عددهم جملة عشرين الف نصفهم من اهل البصرة ومثلهم من اهل الكوفة، وازاء هذا الموقف انتابت الحيرة قائد الجيش الاحنف فيما يفعل وبدأ يفكر في الامر، وحين كان يسير ليلا مستطلعا امور جنده سمع رأيا استصوبه من احد الجند يقول لرفيقه:

---

(٥٤) ابن كثير ـ البداية ج ٧ ص ١٢٧.
(٥٥) الطبري ـ تاريخ ج ٤ ص ١٦٨.
(٥٦) ابن كثير ـ البداية والنهاية ج ٧ ص ١٢٧.
(٥٧) تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٦.

«لو ان الامير اسندنا الى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا وكان الجبل في ظهورنا. . . وكان قتالنا من وجه واحد»[٥٨]. فدرس الرأي وامر بتنفيذه حيث جمع الناس في اليوم التالي وخطب فيهم يحرضهم على القتال ويوعدهم بالنصر، كما ذكرهم بقلة عددهم نسبة لعدد عدوهم واستطرد قائلا: «ارتحلوا مكانكم هذا فاسندوا الى هذا الجبل فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد»[٥٩] فارتحل الجند وهم مكبين على راياتهم حتى اتوا الغيضة ونزلوا وعسكروا في وسطها، وحين اقبل خاقان ومن معه من جند الترك والصغد لم يجدوا اليه سبيلا الا من جهة واحدة فعسكروا امامها، وكان من عادتهم ان يرسلوا ـ قبل المعركة ـ ثلاثة فرسان يدقون بالطبول الواحد بعد الاخر، وكان الاحنف قائد الجيش ـ كعادته كل ليلة يستطلع احوال جنده فعندما رأى الفارس الاول حمل عليه وقتله ثم انقض على الثاني والثالث وهو يرتجز هذا الشعر.

ان على كل رئيس حقا ان يخضب الصغدة او تندقا[٦٠]

وكان من عادة الترك ان يخرجوا الى ساحة القتال بعد خروج الفارس الثالث ويبدو ان المسافة الفاصلة بين الجيشين كانت كبيرة بحيث لم يشعروا بمصرع فرسانهم على يد الاحنف، ثم ان الاشتباك لم يحدث بين الطرفين وذلك لتشاؤم الترك حين خرجوا من معسكرهم ورأوا مصرع فرسانهم الثلاثة فقالوا: «قد اصيب هؤلاء القوم بمكان لم يصب بمثله قط، مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير[٦١]»، فانصرفوا الى مدينة بلخ، وبذا تمكن الاحنف من حقن دماء قومه.

اما يزدجرد، فقد ترك خاقان وجنده معسكرا امام الجيش العربي الاسلامي في مروالروذ وتوجه الى مروالشاهجان ـ وكان فيها حارثة بن النعمان على رأس حامية[٦٢] فتحصن منه، ولكنه ذهب ليستخرج خزائنه العظيمة فيها ثم يلحق بخاقان او بالصين. فاختلف مع قومه في مروالشاهجان حيث كان رأيهم مصالحة العرب فقاتلوه وهزموه واخذوا الخزائن منه، فعبر النهر من بلخ متوجها الى فرغانة وملتجأ الى خاقان.

---

(٥٨) الطبري ـ تاريخ ج ٤ ص ١٦٩.
(٥٩) المصدر نفسه.
(٦٠) ابن عساكر ـ تهذيب ج ٧ ص ١٧.
(٦١) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ١٧٠.
(٦٢) المصدر نفسه.

ويمكن القول هنا ان سبب انسحاب خاقان المفاجيء ودون قتال في سبيل دفع الاحنف بجنده لاتباعه والانشغال بمطاردته في ذات الوقت يستغل يزدجرد ذلك فيتوجه الى مروالشاهجان وفيها حامية عربية صغيرة فيتمكن من استرجاع خزائنه واملاكه ويلحق بخاقان[٦٣]، ولكن الاحنف حين طلب منه بعض جنده مطاردة خاقان وجنده رفض واختار الاقامة ولعله فعل ذلك لكي لايحاصر جنده من قبل جيش العدو الكثير العدد فتقطع خطوط مواصلاته الخلفية الى جانب مراعاة امر الخليفة في عدم التوغل في مناطق نائية من ارض العدو.

ثم اقبل اهل مروالشاهجان (قوم يزدجرد) الى الاحنف بن قيس فصالحوه ودفعوا اليه الخزائن والاموال، وقد ترك خاقان بلخ فعبر النهر بجيشه الى بلاده فتقدم الاحنف بجنده الى بلخ فدخلها وانزل اهل الكوفة في كورها الاربع، وبعد ان استتب الامر فيها للعرب عادالاحنف الى مروالروذ وكتب بخبر الفتح والاخماس الى الخليفة عمر (رض) بالمدينة الذي جمع بدوره الناس وقرأ عليهم كتاب الاحنف واعتبر هذا الفتح بمثابة نهاية الدولة الفارسية[٦٤].

وللاحنف بن قيس دور مهم وواضح في اعادة فتح خراسان ثانية، إذ ان اهلها نكثوا العهد بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ـ فعين الخليفة عثمان بن عفان (رض) واليا على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢٩ هـ. فتوجه الى بلاد فارس ووجه الى مروالروذ وطخارستان الاحنف بن قيس وعندما وصل الى رستاق الاحنف ويدعى بشق الجرذ حاصره فصالحه اهله على ثلثمائة الف درهم[٦٥]، ثم توجه بجيشه الى مدينة مروالروذ فقاتل اهلها وهزمهم الى حصنهم، فطلبوا من العرب ان ينسحبوا الى معسكرهم ويمهلوهم يوما واحدا فاستجاب لهم العرب وفي اليوم التالي ارسل المرزبان الذي كان من ذرية باذان حاكم اليمن ـ كتابا الى الاحنف يطلب فيه الصلح يقول فيه: «الى امير الجيش. . . انه دعاني الى مصالحتك وموادعتك ما كان من اسلام جدي وما كان رأى من صاحبكم من الكرامة والمنزلة فمرحبا بكم وابشروا واني ادعوكم الى الصلح فيما بينكم وبيننا على ان اؤدي اليكم خراجا ستين الف درهم وان تقروا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى اقطع جد ابي. . . .»[٦٦] فرد عليه الاحنف

(٦٣) احمد عادل كمال ـ سقوط المدائن ص ٣٠٣.
(٦٤) الطبري ـ تاريخ ج ٤ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٦٥) البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٩٧.
(٦٦) الطبري ـ تاريخ ج ٤ ص ٣١٠ يبدو ان اسمه باذان على اسم جده.

بكتاب يقول فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم ـ من صخر بن قيس امير الجيش الى باذان مرزبان مروالروذ ومن معه من الاساورة والاعاجم... اما بعد فان ابن اخيك قدم علي فنصح لك جهده وابلغ عنك وقد عرضت ذلك على من معي من المسلمين وانا وهم فيما عليك سواء وقد اجبناك الى ما سألنا وعرضت على ان تؤدي عن اكرتك وفلاحيك والارضين ستين الف... وان عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الاساورة ان احب المسلمون ذلك وأرادوه... وان انت اسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق وانت اخوهم ولك بذلك ذمتي وذمة ابي وذمم المسلمين»[٦٧] والذي نستنتجه ان مبدأ المشاورة واردا عند الاحنف في هذا الامر وغيره.

ثم تذكر لنا الروايات ان عبد الله بن عامر وجه الاحنف في اربعة الاف جندي الى طخارستان، وكان فيها ثلاثون الفا من اهلها مع اهل الجوزجان والطالقان[٦٨] والفارياب وكان عليهم طوقان شاه[٦٩] فلما رأى الاحنف حرج موقفه استشار اصحابه كعادته، فاختلفوا في الجواب، فمنهم من رأى الانسحاب الى مرو وآخرين رأوا العودة الى ابو شهر، ورأي ثالث رجح الاقامة وطلب المدد ورأي رابع رأى اللقاء والحرب، فلم يستصوب اي من الاراء وبدأ يفكر ويتجول ليلا ليسمع اكثر عدد من الاراء. فسمع احد الجند يقول لصاحبه: ان الرأي ان يسير الامير صباحا ويحارب القوم حيث يلقاهم...» فخطأه صاحبه لخطر ذلك على المسلمين وابدى له رأيه بقوله: «ان ينزل بين المرغاب والجبل فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره فلا يلقاه من عدوه وان كثروا الاعدد اصحابه»[٧٠] فاستصوب الاحنف هذا الرأي ونفذه وهزم المشركين حتى انتهوا الى منطقة سكن التي تقع على بعد اثني عشر فرسخا من قصر الاحنف، ثم ارسل الى الجوزجان الاقرع بن حابس حيث طارد من هرب اليها وقاتلهم وهزمهم ثم فتح الاحنف الطالقان صلحا وفتح الفارياب ثم رجع الى مروالروذ وتوجه منها الى مدينة بلخ في مقاطعة طخارستان فحاصرها الى ان طلب اهلها الصلح فوافق على ان يدفع اهلها اربعمائة الف وعين عليها ابن عمه اسيد بن المتشمس، وبعدها توجه الى

---

(٦٧) البلاذري، فتوح ص ٣٩٧ يذكر المدائني ان المبلغ المتفق عليه ستمائة الف درهم، الطبري ـ تاريخ ج ٤ ص ٣١١.

(٦٨) القزويني ـ اثار البلاد ص ٤٠٢ الطالقان قرى بقوهستان بين قزوين وجيلان.

(٦٩) خليفة بن خياط ـ تاريخ ج ١ ص ١٤١.

(٧٠) البلاذري ـ فتوح ص ٣٩٧، الطبري ـ تاريخ ج ٤ ص ٣١٢.

خوارزم، فاقام دون قتال لحلول فصل الشتاء، ويبدو ان فتحها كان صعبا فاستشار فيه اصحابه فقال له احدهم ويدعى الحصين مستشهدا بشعر عمرو بن معدي كرب:

اذا لم تستطع امرا فدعه وجاوزه الى ما تستطع

فأمر الاحنف افراد جيشه بالرحيل نحو بلخ.[٧١]

اما في اثناء الفتنة التي قامت ضد الخليفة عثمان (رض)، فقد ورد عن لسان الاحنف انه حضر اجتماعا للناس في المدينة وحضره ايضا عدد من الصحابة وتحدث فيه الخليفة عثمان (رض) للناس ذكر فيه ما قدمه للدعوة الاسلامية من تضحيات واموال، فذهب الاحنف بعد الاجتماع الى طلحة والزبير يستشيرهما فيمن يبايع بعد تيقنه من مصير الخليفة قائلا: «من تأمراني به وترضيانه لي؟ فاني لا ارى هذا الرجل الا مقتولا، قالا: علي، قلت اتأمراني به وترضيانه لي قالا: نعم»[٧٢] وتوجه بعدها الى مكة لاكمال فريضة الحج حيث بلغه نبأ مقتل الخليفة عثمان (رض) فيها، وكانت عائشة ام المؤمنين في مكة فاستشارها فيمن يبايع فاشارت عليه بمبايعة علي بن ابي طالب (رض) فعاد الى المدينة وبايع عليا بالخلافة ثم رجع الى البصرة.

دوره في موقعتي الجمل وصفين:

حين اتفق كل من طلحة والزبير وعائشة ام المؤمنين على الخروج من الحجاز والمطالبة بدم الخليفة عثمان (رض)، اختاروا البصرة منزلا لهم فسافروا اليها مع من وافقهم في الخروج ونزلوا في منطقة الخريبة من مدينة البصرة.

ونظرا لما للاحنف بن قيس من مكانة مهمة في المدينة واثر على قبائلها، فقد ارسلوا اليه يستنصرونه على المطالبة بدم عثمان، فانتابته الحيرة في الاختيار وقال: «اتاني أفضع امر أتاني قط!... ان خذلاني هؤلاء ومعهم ام المؤمنين وحواري رسول الله (ص) لشديد وان قتالي رجلا ابن عم رسول الله (ص) قد امروني ببيعته لشديد»[٧٣]. وذكر ابن الاعثم[٧٤] ان الاحنف ذكر عائشة ام المؤمنين باشارتها عليه بمبايعة علي بن ابي

(٧١) البلاذري - فتوح ص ٣٩٨، الطبري - تاريخ ج ٤ ص ٣١٣.
(٧٢) الطبري - تاريخ ج ٤ ص ٤٩٧.
(٧٣) الطبري - تاريخ ج ٤ ص ٤٩٨، ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٩.
(٧٤) الفتوح - ج ٢ ص ٢٨٩.

طالب (رض) حين لقيها في مكة ولكنها قالت له: «ههنا امور نحن بها اعلم منك»، فخيرهم بين ان يترك البصرة او ان يبقى فيها ويعتزل القتال بينهم وبين الخليفة علي فوافقوه على الامر الثاني.

ولما وصل الخليفة علي بن ابي طالب (رض) وجيشه الى البصرة، رأى الاحنف ان قومه وخاصة بني سعد لا يرغبون في القتال مع الامام علي (رض) ضد عائشة فجاء الى علي يشرح له موقف قومه ويسأله عن هدفه بقوله: «يا علي ان قومنا بالبصرة يزعمون انك ان ظهرت عليهم غدا انك تقتل رجالهم وتسبي نسائهم، فقال:

ما مثلي يخاف هذا منه وهل يحل هذا الا ممن تولى وكفر. . . وهم قوم مسلمون فهل انت مغن عني قومك؟ قال نعم»، ويبدو ان الاحنف قد غيّر موقفه الذي اتفق عليه مع طلحة والزبير وعائشة رغم تأثره بمقتل عثمان، ولكن في عنقه بيعة للخليفة علي (رض) لايمكنه نكثها فعليه الان استرضاء الطرفين لذا قال لعلي بن ابي طالب: «اختر مني واحدة من ثنتين: اما ان اكون آتيك فاكون معك بنفسي واما ان اكف عنك عشرة الاف سيف»[٧٥] فاختار الخليفة علي (رض) الثانية، فارسل الاحنف بدوره الى قبيلة خندف وتميم يدعوهم الى اعتزال الحرب فاجاب بعضهم، وارسل الى بني سعد فاجابوه جميعا، فاعتزل بمن استجاب له في موضع يدعى الجلحاء على بعد فرسخين من البصرة طيلة مدة القتال[٧٦] وبذا استطاع ارضاء الطرفين عن موقفه.

وللاحنف ايضا موقف ايجابي ورأي سديد في معالجة نتائج المعركة حين انتصر الخليفة علي وجاء اليه الاشتر واهل الكوفة يستفهمون منه ان كان قتالهم لاهل البصرة ومن معهم وهم مؤمنون فقد ارتكبوا خطأ كبيرا او إنهم قاتلوهم وهم كفار وانتصروا عليهم فلهم اموالهم وسبي ذراريهم وهو حكم الله ونبيه في الكفار. فارسل الخليفة علي (رض) الى عدد من رجال البصرة بينهم الاحنف بن قيس يعرض عليهم الامر ويستشيرهم فيه فلم يتكلم احد غير الاحنف الذي قال: «يا امير المؤمنين لماذا ارسلت الينا فوالله ان الجواب عنا لعندك، ولانتبع الحق الا بك ولا علمنا العلم الا منك ـ فقال: احببت ان يكون الجواب عنكم منكم ليكون اثبت للحجة واقطع للتهمة فقل:

فقال الاحنف: انهم قد اخطأوا وخالفوا كتاب الله وسنة نبيهم (ص) انما كان السبي

---

(٧٥) ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٧ ـ ١٨، ابن الاعتم ـ الفتوح ج ٢ ص ٢٩٧ يذكر ان عدد من اعتزل مع الاحنف اربعة الاف.

(٧٦) الطبري ـ تاريخ ج ٤ ص ٤٩٧، ابن عبد ربه ـ العقد ج ٤ ص ٣٢٠.

والغنيمة على الكفار الذين دارهم دار كفر والكفر لهم جامع ولذراريهم ولسنا كذلك، وان دارنا دار الايمان ينادى فيها بالتوحيد وشهادة الحق واقامة الصلاة وانما بغت طائفة اسماؤهم معلومة اسماء اهل البغي والثانية حجتنا انا لم نستجمع على ذلك البغي فانه كان من انصارك من اثبتهم بصيرة في حقك واعظمهم غناءا طائفة من اهل البصرة فاتى اولئك بجهل حقه ونسبي قرابته، هذا الذي اتاك به الاشتر واصحابه قول متعلمة اهل الكوفة» فهو يذكر الخليفة بان السبي والغنيمة لايكون في دار الاسلام وانما الذي حدث كان خطأ من بعض الناس ويتهم الاشتر بالتحامل على اهل البصرة ويستطرد مهددا بسوء العاقبة بقوله: «وايم الله لئن تعرضوا لها لنكرهن عاقبتها ولاتكون الاخرى كالاولى» فوافقه الخليفة علي (رض) على رأيه وطلب منه رأيه في مكافأة الجند لما قاسوه من عناء الحرب فرد عليه الاحنف بان اعطيات اهل البصرة لازالت في بيت المال واعلن نيابة عن قومه تنازلهم عنها تلك السنة وطلب من الخليفة علي (رض) ان يقسمها بين افراد جيشه. فاجتمع الخليفة بجنده وشرح لهم ما عرضه الاحنف من حجج مقنعة ثم دعا بالمال وقسمه بين اتباعه فاصاب الرجل خمسمائة درهم[٧٧].

ويبدو ان الاحنف كان يخشى الامر على قومه حين سأل الخليفة قبل الحرب عن موقفه من اهل البصرة ان تم له النصر[٧٨].

ورغم اعتزاله وعدم مشاركته في الحرب مع قومه الا ان عقله وفهمه وحكمته الى جانب حياده كل ذلك دفع الخليفة علي ان جعله محكما في بعض نتائجها.

وقد شارك الاحنف بن قيس وقومه في موقعة صفين الى جانب الخليفة علي (رض) حيث جاءه وابدى استعداده بالمشاركة بقوله: «يا امير المؤمنين ان يك بنو سعد لم ينصروك يوم الجمل فلن ينصروا عليك غيرك... وان عشيرتنا بالبصرة فلو بعثنا اليهم فقدموا علينا فقاتلنا بهم العدو وانتصفنا بهم من الناس... ولنا من قومنا عدد...)[٧٩] ويبدو انه جاء الخليفة علي (رض) في الكوفة مع عدد من بني تميم قومه فلما وافقه على رأيه كتب الى بني سعد كتابا يدعوهم الى التوجه نحو الكوفة وعدم التباطؤ لانهم قد عزموا الى المسير نحو الشام مع الخليفة علي (رض)[٨٠] وكان الاحنف

---

(٧٧) ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٧ - ١٨.
(٧٨) الطبري - تاريخ ج ٤ ص ٤٩٧.
(٧٩) ابن قتيبة - الامامة والسياسة ج ١ ص ٧٩ - ٨٠.
(٨٠) ابن الاعتم - الفتوح ج ٢ ص ٣٧٢.

قائدا على تميم البصرة في هذه الموقعة[٨١]، وحين رفع جند الشام المصاحف وطالبوا اهل العراق بايقاف القتال وقبول التحكيم واختلف الناس فيه قال الاحنف للخليفة: «يا امير المؤمنين ان الناس بين ماض وواقف وقائل وساكت وكل في موضعه حسن وانه لو نكل الاخر عن الاول لم يقل شيئا الا ان يقول اليوم ما قد قيل امس، ولكنه حق يقضى، ولم نقاتل اليوم لنا ولا لك وانما قاتلناهم لله، حال امر الله دوننا ودونك فاقبله فانك اولى بالحق واحقنا بالتوفيق ولا ارى الا القتال»[٨٢] ولما اتفق الناس على قبول مبدأ التحكيم رشح اهل العراق ابا موسى الاشعري للقيام بهذه المهمة، فاشار الاحنف على الخليفة علي (رض) ان يسند مهمة التحكيم الى ابن عباس لانه رجل مجرب فاستجاب لرأيه ولكن اليمانية رفضت ذلك[٨٣] فطلب الاحنف من علي (رض) ان يشارك بنفسه ابا موسى في هذه المهمة بقوله: «ان ابا موسى رجل يماني وقومه مع معاوية فابعثني معه فو الله لايحل لك عقدة الا عقدت لك اشد منها»[٨٤] ويبدو ان طلبه رفض فاشار على القوم بان يدفئوا ظهره بالرجال[٨٥]. ثم ذهب بنفسه الى ابي موسى يذكره باهمية المهمة المناطة اليه واثرها مستقبلا على الامة وينصحه ويذكره بتقوى الله وقال له: « يا ابا موسى اعرف خطب هذا الامر واعلم ان له ما بعده، وانك ان ضيعت العراق فلا عراق لك فاتق الله فانك تجمع بذلك دنيا واخرى» ثم حذره من دهاء عمرو بن العاص وخداعه بقوله: «واذا لقيت عمرا غدا فلا تبادره بالسلام فليس من اهله ولاتعطه يدك فانها امانة واياك ان يقعدك على صدر الفراش فانها خدعة. . . وان لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيّره ان يختار اهل العراق من قريش اهل الشام من شاؤا فانهم ان يولوا الخيار يختاروا من يريدون فان ابى فليختر اهل الشام من قريش اهل العراق من شاؤا فان فعلوا كان الامر بيننا»[٨٦].

---

(٨١) خليفة بن خياط ـ تاريخ ج ١ ص ١٧٧.
(٨٢) ابن قتيبة ـ الامامة ج ١ ص ١٠٨.
(٨٣) الذهبي ـ سير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٨٣.
(٨٤) ابن قتيبة الامامة ج ١ ص ١١٤.
(٨٥) التوحيدي ـ البصائر والذخائر ج ٢ ص ٦٨٤.
(٨٦) ـ ابن قتيبة ـ الامامة ج ١ ص ١١٦.

دور الاحنف في العصر الاموي:

لقد رأينا ان الاحنف وقومه بني تميم ساندوا امير المؤمنين عليا (رض) ضد معاوية في موقعة صفين ولكن شخصية الاحنف المرنة جعلت العلاقة بينه وبين الخليفة الاموي معاوية بن ابي سفيان جيدة بصورة عامة الا من بعض مواقف العتاب من قبل معاوية حيث ذكر انه قال له مرة: «ما اذكر صفين الا وكانت في قلبي حرارة»[٨٧] وفي احدى وفاداته على معاوية مع جماعة من اهل العراق ذكره بيوم صفين قائلا: «انت الشاهر علينا السيف يوم صفين والمخذل عن ام المؤمنين عائشة» ولكن الاحنف حاول محو كدر الماضي وبدء علاقة جديدة فرد عليه قائلا: «يا معاوية لاتذكر ما مضى منا، لاترد الامور على ادبارها، فان السيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا والقلوب التي ابغضناك بها بين جوانحنا، والله لاتمد الينا شبرا من غدر الا مددنا اليك ذراعا من جد، وان شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو عفوك فقال له معاوية: ـ فاني افعل ثم اعطاهم وحباهم وأرضاهم»[٨٨].

وتشير الروايات ان الاحنف كان يأتي معاوية في الشام ويحضر مجلسه وكان الخليفة يوقره ويحترمه، منها انه دخل مرة على معاوية ومعه ابن الاشعث فسبقه الاخير في الدخول، فغم ذلك معاوية واعتذر للاحنف بانه يريده ان يدخل قبل ابن الاشعث وقال له: «انا كما نلي اموركم نلي ادابكم»[٨٩] ورغم العلاقة الحسنة والمنزلة السامية للاحنف لدى الخليفة الا ان معاوية رفض ان يولي الاحنف في احدى وظائف الدولة الادارية لموقفه في صفين ـ فقد طلب من زياد بن ابي سفيان واليه على العراق ان يختار رجلا مناسبا يوليه ثغر الهند فرشح زياد كلا من الاحنف وسنان بن سلمة فرفض معاوية تولية الاحنف بحجة مواقفه في الجمل وصفين وامر زياد بتولية سنان بن سلمة فرد عليه زياد في كتاب يعكس له منزلة الاحنف بالعراق بقوله: «ان الاحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما تنفعه الولاية ولايضره العزل»[٩٠].

وكان له موقف واضح ومتشدد تجاه محاولة الخليفة معاوية توريث ابنه يزيد للخلافة، فحين عقد الخليفة اجتماعا في دمشق ضم وفود الامصار، وتكلم فيه

---

(٨٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج ١ ص ٧٨.
(٨٨) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ٢٠.
(٨٩) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٦٨، ج ٢ ص ٤٣٧.
(٩٠) ابن قتيبة: عيون الاخبار ج ١ ص ٢٢٧.

مؤيدوه بالثناء على يزيد ابنه مطالبين ولايته للعهد، كان الاحنف بن قيس حاضرا ذلك الاجتماع، وقد التزم الصمت الى أن طلب منه الخليفة اعلان رأيه فانبرى يذكر الخليفة بان اهل العراق والحجاز لايرضون الامر مع وجود بيعة سابقة للحسن بن علي بكلام بليغ جاء فيه: «اصلح الله امير المؤمنين ان الناس قد امسكوا في منكر زمان قد سلف ومعروف زمان مؤتنف ويزيد بن امير المؤمنين نعم الخلف وقد حلبت الدهر اشطره، يا امير المؤمنين فاعرف من تسند اليه الامر من بعده ثم اعصِ امر من يأمرك، لايضرك من يشير عليك ولاينظر لك، وانت انظر للجماعة واعلم باستقامة الطاعة مع ان اهل الحجاز واهل العراق لايرضون بهذا ولايبايعون ليزيد ما كان الحسن حيا»[٩١]، وكان الضحاك بن قيس الفهري حاضرا الاجتماع ومن المؤيدين لفكرة توريث يزيد للخلافة وكان قد اتفق مع الخليفة ان يثني على يزيد وخصاله امام المجتمعين، فلما سمع مقاله الاحنف رد عليه بشدة متحاملا على اهل العراق مما اضطر الاحنف لان يشتد بجوابه امام الخليفة ويعلمه بحقيقة اهل العراق منه ومن الحسن ابن علي بعد مقدمة اثنى فيها على الخليفة ثم قال: «... وقد علمت انك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها قمصا ولكنك اعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الامر من بعدك، فان تف فانت اهل للوفاء وان تغدر تعلم والله ان وراءه الحسن خيولا جيادا واذرعا شدادا وسيوفا حدادا، ان تدن له شبر من غدر تجد وراءه باعا من نصر، وانت تعلم ان اهل العراق ما احبوك منذ ابغضوك ولا ابغضوا عليا وحسنا منذ احبوهما... وان السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لفي عواتقهم والقلوب التي ابغضوك بها لفي جوانحهم وايم الله ان الحسن لاحب الى اهل العراق من علي»[٩٢]، ونلاحظ ان الاحنف تكلم باسم اهل العراق وليس باسم قبيلة مضر وغيرها ثم انه يعلم الخليفة بضرورة الوفاء بالعهد الذي عقده مع الحسن بن علي ويهدد الخليفة من سوء العاقبة، ولكنه حين رأى اتفاق المجتمعين على امر البيعة ليزيد ذكر الخليفة بعوائد ابنه ومدى صلاحيته لمنصب الخلافة حيث قال له: «يا امير المؤمنين انت اعلمنا بليله ونهاره وسره وعلانيته فان كنت ترى انه خير لك فوله واستخلفه، وان كنت ترى انه شر لك فلا تزوده الدنيا وانت صائر الى الاخرة... واعلم انه لا حجة لك عند الله ان قدمت يزيد على الحسن والحسين وانت تعلم من هما والى ماهما وانا علينا أن نقول سمعنا واطعنا...»[٩٣].

---

(٩١) ابن قتيبة: الامامة ج ١ ص ١٤٦.
(٩٢) المصدر نفسه ص١٤٧.
(٩٣) ابن قتيبة: الامامة ج ١ ص ١٤٨ ـ الشريف الرضي ـ امالي المرتضى ج ١ ص ٢٧٥.

وفي رواية اخرى انه رد على الخليفة عندما طلب رأيه بقوله: «ان صدقناك اسخطناك وان كذبناك اسخطنا الله»[٩٤] ولعل ذلك كان في اجتماع اخر، ولاتورد لنا الروايات معارضة للاحنف بن قيس لولاية عهد يزيد بعد وفاة الحسن بن علي ولعله وافق على ذلك لان اساس معارضته كانت الوفاء بالعهد الذي قطعه معاوية للحسن ابن علي كما تردد في اقواله التي تصور مدى جرأته وشجاعته في قول الحق.

اما مكانته عند ولاة العراق، فقد كان زياد بن ابي سفيان يقربه ويحترمه لما له من منزلة عند الناس، وكان يحضر بعض مجالس زياد[٩٥] ويأخذ برأيه.

وعندما تولى عبيد الله بن زياد ولاية العراق بعد وفاة ابيه ساد التباعد بينه وبين الاحنف ولم تذكر لنا المصادر سبب ذلك الفتور، وحدث ان توجه وفد من العراق الى الشام برفقة الوالي لمقابلة الخليفة فادخلهم عبيد الله وفق منزلتهم عنده وجعل الاحنف آخرهم. ولكن معاوية لما ابصره اجله ورحب به وعظمه واجلسه على سريره واخذ يحادثه دون اعضاء الوفد والذين كانت مهمتهم اختيار والٍ للعراق فبدأوا حديثهم بالثناء على عبيد الله واكتفى الاحنف بالصمت فطلب الخليفة منه ابداء رأيه فقال: «ان تكلمت خالفتهم» فعلم الخليفة قصده واعلن عزل عبيد الله وطلب منهم اختيار رجل يوليه العراق بعد مهلة ثلاثة ايام، فلما حضروا مجلس معاوية اختلفوا فيمن يولون ولم يرشح احدا منهم عبيد الله وبقي الاحنف ملتزما الصمت فطلب منه معاوية رأيه فقال: «ان كنت تريد ان تولي فيها احدا من اهل بيتك فليس فيهم من هو مثل عبيد الله فانه رجل حازم لايسد احدا منهم مسده وان كنت تريد غيره فانت اعلم بقرابتك»[٩٦] فاستصوب معاوية راي الاحنف ورد عبيد الله الى ولاية العراق. وروي انه قال له «كيف ضيعت مثل هذا الرجل فانه عزلك واعادك الى الولاية وهو ساكت... فمثل الاحنف من يتخذه الانسان عونا وذخرا»[٩٧]، اما لماذا خالف الاحنف اعضاء الوفد اولا ثم خالفهم ثانية فهل استغل الموقف في سبيل رفع مكانته عند الوالي وهذه ليست من مزاياه وقد يكون تعقله وحكمته دفعاه لقول الحقيقة عندما

---

(٩٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٥٩، ابن العماد ـ **شذرات** ج ١ ص ٧٨.

(٩٥) ابن كثير: البداية ج ٨ ص ٣٢٧ ـ ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ج ١ ص ٧٣، البيهقي المحاسن ج ١ ص ٤٤٥.

(٩٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٩٧) ابن خلكان: وفيات ج ٢ ص ١٩٠.

راى تنافس اعضاء الوفد في سبيل الحصول على منصب الامارة فخالفهم وذكر للخليفة ما ينفرد به عبيد الله من ميزة الحزم التي يحتاج اليها الوالي في ادارة العراق. فتحسنت منزلته عنده.

وقد وصلت اخبار شرفه وسيادته الى اهل الشام فقد ورد انه وفد الى الشام برفقة المنذر بن الجارود الذي كان قد تزين في ملبسه بعكس الاحنف فكلما مر المنذر في حي صاح الناس هذا الاحنف، فقال: «اراني تزينت لهذا الشيخ»[٩٨].

ولايبدو موقفه واضحا من الحسين بن علي، فقد روي ان الحسين (رض) كتب الى الاحنف يدعوه الى نفسه فلم يرد عليه جوابا ولكنه علل موقفه بقوله: «قد جربنا آل ابي الحسن فلم نجد عندهم الة لملك ولاجمعا للمال ولامكيدة في الحرب»[٩٩] فان صحت الرواية فقد تكون علاقته الجيدة بمعاوية ثم تحسن منزلته عند عبيد الله بن زياد والي العراق سببا لموقفه هذا الى جانب ما عرف عنه من البعد عن اسباب الحروب والثورة لعلمه بطبيعة الموقف حينئذ.

وحين توفي يزيد بن معاوية كان للاحنف موقف ايجابي في حماية عبيد الله بن زياد ـ الذي جمع الناس وخطب فيهم طالبا منهم اختيار والٍ لهم فرد عليه الاحنف قائلا: «نحن بك راضون حتى يجتمع الناس» فاستمر في عمله واليا على العراق وبدأ يوزع العطاء على الناس، وعندما خرج سلمة بن ذويب الرياحي يدعو الى بيعة عبد الله بن الزبير، اجابه كثير من الناس فخشي عبيد الله بن زياد على نفسه، فلجأ الى سيد الازد ويدعى مسعود بن عمرو حيث بقي عنده اربعين يوما فانتهجت دار الامارة في البصرة وحين بلغ الاحنف الخبر قال: «لايدخل دار ابن زياد احد وأنا حي» فوفر الحماية لها ولبيت المال والسجن والديوان من اتباعه[١٠٠].

ويبدو لنا دوره الواضح في تهدئة الاوضاع المضطربة والتي لم تستمر طويلا بسبب نشر خبر اجارة زعيم الازد لعبيد الله فتوجهت القبائل والخوارج الى المسجد محتجين وخرج اليهم مسعود بن عمرو ليعلن لهم اعتذاره بعد ان هرب عبيد الله نحو طريق الشام، ولكنهم قتلوه. ويذكر ابن قتيبة انهم ظنوا انه عبيد الله[١٠١]، ويقول المدائني:

---

(٩٨) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ج ١ ص ٢١١.

(٩٩) ابن قتيبة: عيون الاخبار ج ١ ص ٢١١.
التوحيدي: البصائر ج ١ ص ١٦٨.

(١٠٠) خليفة بن خياط: تاريخ ج ١ ص ٢٥٣.

(١٠١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٧ ـ ١٨.

زعمت الازد ان الازارقة قتلوه بامر الاحنف»[١٠٢]، فولى عليهم الازد زياد بن عمرو العتكي زعيما ثم ساروا الى بني تميم لقتالهم، ولكن الاحنف سيد تميم رفض القتال اول الامر ثم اقنعه قومه فاستجاب ودعا برايته وقال: «اللهم انصرها ولاتذلها اللهم احقن دماءنا واصلح ذات بيننا»[١٠٣] ويبدو من دعائه رغبته في الصلح ولكن القتال نشب بين قبيلتي الازد وتميم بالبصرة ووقع من الطرفين عددا كبيرا من القتلى مما اضطر الاحنف بن قيس وهو زعيم تميم لاتباع مختلف السبل لايقاف الحرب فذهب بنفسه الى دار زياد بن عمرو زعيم الازد وقال للمجتمعين: «يا معشر الازد انتم جيراننا في الدار واخواننا عند القتال وقد اتيناكم في رحالكم مسيكنكم ونسل سخيمتكم ولكم الحكم فعولوا على اموالنا لايتعاظمنا منها شيء يكون فيه صلاح ذات بيننا ولأنتم احب الينا من تميم الكوفة»[١٠٤] ويبدو لنا مدى رغبته الشخصية في حقن الدماء واشعار القبائل الاخرى بالروح القومية التي تجمع بين القبائل في البلد الواحد، وكان لايتوانى دائما عن دفع الاموال كما فعل بعد موقعة الجمل، وقد خيره الازد في ثلاثة امور اما ان تخرج قبيلة مضر من البصرة الى البادية واما ان تدفع تميم دية قتلى الازد ولا تدفع الازد الدية لقتلى تميم وتكون دية مسعود زعيم الازد عشرة ديات والا فالحرب قائمة، فرفض الاحنف الخروج من البصرة بقوله: «لاندع مهاجرنا ومركزنا وفيء الله علينا» كما رفض الحرب ايضا وقبل دفع الدية ولكنه كان يرى ان مسعودا رجلا مسلما وديته دية رجل مسلم واحد، وبعد مفاوضات توادع الطرفان وقبل دفع دية مسعود مائة الف درهم ضمن دفعها بعد ان وافق أمير البصرة من قبل عبد الله بن الزبير وهو (عبد الله ابن الحارث المخزومي) ان يتحملها من بيت المال، فدعا الاحنف ابن اخته اياس بن قتادة ان يتضمنها[١٠٥] وبذلك تمكن من حقن الدماء واعادة الوفاق بين اكبر قبيلتين في البصرة.

ولاتذكر لنا الروايات عن وجود علاقة للاحنف بن قيس مع الخلفاء الامويين بعد معاوية بن ابي سفيان، فقد انضم الى جانب ابن الزبير ضد الدولة الاموية توافقا مع الاوضاع السياسية في العراق حينئذ.

وحين نزل الخوارج في منطقة بين الجسرين في البصرة واخذوا يغيرون عليها، كان

---

(١٠٢) البلاذري: انساب ج ٤ ص ١٠٦.
(١٠٣) البلاذري: انساب ج ٤ ص ٩٨ ـ ٩٩، ابن حبيب ـ المحبر ص ٢٥٤.
(١٠٤) البلاذري: انساب ج ٤ ص ٩٩.
(١٠٥) البلاذري: انساب الاشراف ج ٤ ص ١٢٠، ١٢٢.

الاحنف بن قيس من بين اعضاء الوفد الذي ارسله اهل البصرة الى المهلب بن ابي صفرة في خراسان طالبين منه تولي قتال الخوارج»[١٠٦].

ولم يؤيد الاحنف حركة المختار الثقفي في العراق ـ وقد صادف ان نشب قتالا بين شيعة المختار واعدائهم في البصرة وشارك الاحنف في الصلح بين الطرفين لحقن الدماء، فلما علم المختار بما سعى اليه الاحنف في احلال السلم طمع الى ضمه لجانبه فذكر انه كتب اليه كتابا يقول فيه: «من المختار بن عبيد ومن قبله سلم انتم اما بعد فويل لربيعة ومضر وان الاحنف مورد قومه سقر حين لايستطيع لهم الصدر واني لا املك لكم الا ما خط في الزبر وبلغني انكم تكذبوني وقد كذبت الانبياء قبلي ولست بخير من كثير»[١٠٧] ، ولا نعلم رد الاحنف عليه.

وقد شارك الاحنف في الجيش الذي قاده مصعب بن الزبير لقتال المختار في الكوفة وكان قائدا على جيش العالية، وقيل انه كان حاضرا في الجيش ولم يحب ان يشهر نفسه[١٠٨]، وقد انتصر جيش مصعب بن الزبير على المختار، ثم اختلف الناس في مصير الاسرى فاستشار مصعب الاحنف بن قيس فيهم فاشار عليه بالعفو عنهم[١٠٩]، ولكن اهل الكوفة لما سمعوا قوله ضجوا وطلبوا من مصعب قتلهم فاستجاب لهم وقتلهم فقال لهم الاحنف: «ما ادركتم بقتلكم ثأرا فليته لايكون في الاخرة وبالا»[١١٠].

وكان مقربا الى مصعب بن الزبير امير العراق من قبل اخيه، وقد اوفد مرة الى اخيه عبد الله بن الزبير مع وجوه اهل البصرة وله قول مؤثر معه[١١١].

ويبدو ان مصعبا كان يستشيره ويعمل بمشورته، فحين عين عبد الله بن الزبير ابنه حمزة واليا على البصرة، استشار مصعب الاحنف حين اراد الامتناع عن تسليمه الولاية فنصحه الاحنف بطاعة اخيه لان الاختلاف بينهما يكون اثره على الناس بقوله: «ان رأيت ان لايكون بينك وبين اخيك ما تتضاران فيه فافعل فان ضرر ذلك ينالنا»[١١٢].

---

(١٠٦) البلاذري: انساب ج ٥ ص ٢٢٤، ٢٥٢.
(١٠٧) المصدر نفسه، ج ٥ ص ٢٤٥، ٢٤٦، ابن كثير: البداية ج ٨ ص ٢٧٤ـ ٢٧٥.
(١٠٨) البلاذري: انساب ج ٥ ص ٢٥٣، ٢٥٩.
(١٠٩) البلاذري: انساب ج ٥ ص ٢٦٣.
(١١٠) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٦٣.
(١١١) الجاحظ: البيان والتبيين ج١ ص ٢٩٠.
(١١٢) البلاذري: انساب ج ٥ ص ٢٥٧، ٣٣٦.

وحين ادرك الاحنف عجز حمزة وعدم تمكنه من ادارة شؤون البصرة كتب الى عبد الله بن الزبير يشرح له الامر ويطلب منه عزل ابنه واعادة مصعب الى ولاية البصرة، ويدل ذلك على مدى سيادته في البصرة واثره عند ابن الزبير ايضا.

وكان مصعب يحترم رأيه ويجله ويبدو انه كان اكرم الناس عليه وكثيرا ما يتوسط به الناس في المهمات والمشاكل الكبيرة لحلها ومن امثال مواقفه هذه ان رجلا يدعى ابن ابي عصيفير الثقفي كان مسجونا لدين عليه قدره خمسمائة الف[113] وهو في سجن الكوفة، وصادف ان رحل الاحنف برفقة مصعب الى الكوفة، فلما علم بذلك امر رجاله ان يقيموا الانزال للاحنف منذ خروجه من البصرة الى ان دخل الكوفة وانزله في داره، فلما علم الاحنف بانه مسجون في مال كلم مصعباً عنه فرد عليه بان عليه كذا وكذا من المال ـ فقال له الاحنف: «مثل الامير سئلها ومثلي ترك له مثلها، فقال ـ هي لك ومثلها»[114] فلما ارسل مصعب المال الى الاحنف رده الى ابن ابي عصيفير مما يدل على مبلغ جوده وسخائه.

وقد اثرت مكانة الاحنف على الخليفة عبد الملك بن مروان إذ حاول استمالته وضمه الى جانبه، فحين بلغه عن طريق جواسيسه في العراق بحدوث فتور بين الاحنف ومصعب بن الزبير، ارسل اليه يقول: «بلغني تنكر صاحبك لك، فهلم الينا فلك عندنا ولاية الشام»، ولكن الاحنف رفض بشدة منكرا الغدر والخيانة بقوله: «لوددت ان بيننا وبينهم بحرا من نار لايعبره الينا منهم احد الا احترق ثم قال: «اللهم امت الاحنف قبل ان يرى لاهل العراق غدرا»[115].

نماذج من حكمه واقواله:

لحكم الاحنف واقواله اثر كبير في مكانته الاجتماعية عند الناس، وهي التي تعكس لنا سجاياه واخلاقه وعاداته التي سودته على قطاع كبير من اهل البلاد وبدوره كان له الاثر السياسي الذي تكلمنا عنه.

فقد أجمع الرواة على وصفه بالحلم وله اقوال كثيرة في هذا الجانب نذكر منها قوله: «وجدت الحلم انصر لي من الرجال»[116] وقال فيه: «انه قول ان لم يكن فعل وصمت

---

(١١٣) لم يحدد النص ان كانت دراهم او دنانير وارجح ان تكون دراهم.
(١١٤) البلاذري: انساب ج ٥ ص ٢٨٨ ابن قتيبة: عيون ج ١ ص ١٠٢.
(١١٥) البلاذري: انساب ج ٥ ص ٢٨٨.
(١١٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٣.

ان ضر قول»[117]، وقال ايضا: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات»[118]، وقال: «ليس فضل الحلم ان تظلم حتى اذا قدرت انتقمت ولكنه اذا ظلمت فحلمت ثم قدرت فعفوت»[119] وله ايضا: «لايتبين حلم الرجل حتى يغضب»[120].

وله حكما كثيرة في الاداب الاجتماعية سطرتها له الكتب منها قوله: «اسرع الناس الى الفتنة اقلهم حياءاً من الفرار»[121].

وكذلك: «من فسدت بطانته كمن غصّ بالماء ومن غصّ بالماء فلا مساغ له ومن خان ثقاته فقد اتي من مأمنه»[122].

وسأل رجل الاحنف بقوله: «دلني على حمد بلا مرزئة» فقال له: (الخلق السجيح والكف عن القبيح ثم اعلموا ان ادوى الداء اللسان البذيء والخلق الرديء»[123].

وقال: «من كان فيه اربع خصال ساد قومه غير مدافع، من كان له دين يحجزه وحسب يصونه وعقل يرشده وحياء يمنعه»[124].

ومن كلامه: «ما خان شريف ولاكذب عاقل ولا اغتاب مؤمن»[125].

وقال: «ما ادخرت الاباء للابناء ولا ابقت الموتى للاحياء افضل من اصطناع معروف عند ذوي الاحساب والاداب»[126].

وسئل مرة عن العقل فقال: «رأس الاشياء فيه قوامها وبه تمامها لانه سراج ما بطن وملاك ما علن وسائس الحسد وزينة كل احد لا تستقيم الحياة الا به ولا تدور الامور الا عليه»[127].

وسمع مرة رجلا يقول: «ما ابالي من حيث مدحت ام ذممت» فقال لـه: «لقد

---

(١١٧) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٩.
(١١٨) الجاحظ: البيان ج ٢ ص ٧١.
(١١٩) ابن عساكر: تهذيب ج٧ص٢٠.
(١٢٠) المصدر نفسه
(١٢١) ابن عبد ربه: العقد ج ١ ص ١٣٩، الجاحظ البيان ج ٢ ص ٦٧.
(١٢٢) ابن عبد ربه: العقد ج ١ ص ٣٣.
(١٢٣) الجاحظ: البيان ج ٢ ص ١١٧.
(١٢٤) ابن عساكر: تهذيب ج ٧ ص ٢٠.
(١٢٥) ابن خلكان: وفيات ج ٢ ص ١٨٧.
(١٢٦) المصدر نفسه.
(١٢٧) القيرواني: زهر الاداب ج ٤ ص ١٠٩٦.

ان ضر قول»[117]، وقال ايضا: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات»[118]، وقال: «ليس فضل الحلم ان تظلم حتى اذا قدرت انتقمت ولكنه اذا ظلمت فحلمت ثم قدرت فعفوت»[119] وله ايضا: «لايتبين حلم الرجل حتى يغضب»[120].

وله حكما كثيرة في الاداب الاجتماعية سطرتها له الكتب منها قوله: «اسرع الناس الى الفتنة اقلهم حياءاً من الفرار»[121].

وكذلك: «من فسدت بطانته كمن غصّ بالماء ومن غصّ بالماء فلا مساغ له ومن خان ثقاته فقد اتي من مأمنه»[122].

وسأل رجل الاحنف بقوله: «دلني على حمد بلا مرزئة» فقال له: (الخلق السجيح والكف عن القبيح ثم اعلموا ان ادوى الداء اللسان البذيء والخلق الرديء»[123].

وقال: «من كان فيه اربع خصال ساد قومه غير مدافع، من كان له دين يحجزه وحسب يصونه وعقل يرشده وحياء يمنعه»[124].

ومن كلامه: «ما خان شريف ولاكذب عاقل ولا اغتاب مؤمن»[125].

وقال: «ما ادخرت الاباء للابناء ولا ابقت الموتى للاحياء افضل من اصطناع معروف عند ذوي الاحساب والاداب»[126].

وسئل مرة عن العقل فقال: «رأس الاشياء فيه قوامها وبه تمامها لانه سراج ما بطن وملاك ما علن وسائس الحسد وزينة كل احد لا تستقيم الحياة الا به ولا تدور الامور الا عليه»[127].

وسمع مرة رجلا يقول: «ما ابالي من حيث مدحت ام ذممت» فقال لـه: «لقد

---

(١١٧) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٩.
(١١٨) الجاحظ: البيان ج ٢ ص ٧١.
(١١٩) ابن عساكر: تهذيب ج٧ص٢٠.
(١٢٠) المصدر نفسه
(١٢١) ابن عبد ربه: العقد ج ١ ص ١٣٩، الجاحظ البيان ج ٢ ص ٦٧.
(١٢٢) ابن عبد ربه: العقد ج ١ ص ٣٣.
(١٢٣) الجاحظ: البيان ج ٢ ص ١١٧.
(١٢٤) ابن عساكر: تهذيب ج ٧ ص ٢٠.
(١٢٥) ابن خلكان: وفيات ج ٢ ص ١٨٧.
(١٢٦) المصدر نفسه.
(١٢٧) القيرواني: زهر الاداب ج ٤ ص ١٠٩٦.

استرحت من حيث تعب الكرام»[١٢٨].

وقيل له ـ «بم سدت قومك ولست بأسنّهم ولا اشرفهم؟ فقال: «اني لا اتكلف ما كفيت ولا اضيع ما وليت ولو ان الناس كرهوا شرب الماء ما طعمته»[١٢٩].

وقال في السلطان: «لاتنقبضوا عن السلطان ولاتهالكوا عليه فانه من اشرف للسلطان أذراه ومن تضرع له اخطأه»[١٣٠].

وقال فيه ايضا: «يجب على الخلق من حق الله التعظيم له والشكر ويجب على الرعية من حق السلطان الطاعة له والسمع والمناصحة ومن حق الرعية على السلطان الاجتهاد في امورهم» وقال في الولاة: «لا ينبغي للوالي ان يحسد لان خطره عظيم قد عظم عن المجازاة والولاة تحسد على حسن التدبير، ولاينبغي له ان يغضب لان الغضب في القدرة لقاح السيف والندامة، ولاينبغي له ان يكذب لانه لايقدر احد على استكراهه على غير ما يريده، ولا ينبغي له ان يدع تفقد لطيف امور الرعية لامنه على نظره في جسيمها، لان للطيف موضعا ينتفع به وللجسم موضعا لا يستغنى عنه» وقال: «رأس سياسة الوالي خصال ثلاث: اللين في الناس والاستماع منهم والنظر في امورهم»[١٣١].

وقد ذكر الصمت والنطق عند الاحنف فقال رجل: «الصمت افضل واحمد فقال الاحنف: «صاحب الصمت لايتعداه نفعه وصاحب المنطق ينتفع به غيره والمنطق الصواب افضل»[١٣٢].

وقد شبه كلامه بكلام الفلاسفة في قوله: «الادب في الانسان نور العقل كما ان النار في الظلمة نور البصر»[١٣٣].

وقد ذكر ابن عساكر[١٣٤] كثيرا من اقواله منها: «ليس لكذوب مروءة ولا لحسود راحة ولا لسيىء الخلق سؤدد ولا إخاء لملول ولا خلة لبخيل».

---

(١٢٨) ابن خلكان: وفيات ج ٢ ص ١٨٨

(١٢٩) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ١٩.

(١٣٠) ابن عساكر: تهذيب ج ٧ ص ٢٥.

(١٣١) المصدر والصفحة نفسهما.

(١٣٢) الجاحظ: الرسائل ج ١ ص ٣٨٠، التوحيدي: البصائر ج ٢ ص ٥٠٩.

(١٣٣) التوحيدي: البصائر ج ١ ص ٢٠٥.

(١٣٤) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ٢٢، ٢٣، ٢٥.

وقال في المروءة انها: «العفة والحرمة وهي كتمان السر والتباعد عن الشر»، «وهي التقى والاحتمال» ثم اطرق ساعة وقال:

واذا جميل الوجه لم يأت الجميل فما جماله
ماخير اخلاق الفتى الا تقاه واحتماله

وقال: ـ «ثلاث خصال تجتلب بهن المحبة: الانصاف في المعاشرة والمواساة في الشدة والانطواء على المودة».

وقال: «لايطمعن ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخب في كثرة الصديق ولا السيء الادب في الشرف، ولا الشحيح في البر ولا الحريص في قلة الذنوب».

وفاته:

توفي الاحنف في الكوفة عندما قدم اليها مع مصعب بن الزبير، وقد اختلف الرواة في سنة وفاته فمنهم من ذكر وفاته سنة سبع وستين او ثمان وستين او تسع وستين وقيل اثنتين وسبعين[١٣٥] ويرجح ابن خلكان سنة سبع وستين[١٣٦].

وقد مشى مصعب بن الزبير في جنازته متقلدا سيفا ليس عليه رداء اعظاما لموته وهو يقول: «ذهب اليوم الحزم والرأي»[١٣٧] وقال ايضا: «مات سيد العرب»[١٣٨] وقد رثته بنت لأوس السعدي بكلام جمعت فيه خصاله منه قولها: «... لقد عشت مودودا حميدا ولقد مت سعيدا فقيدا، ولقد كنت عظيم الحلم، فاضل السلم، رفيع العماد، واري الزناد، منيع الحريم، سليم الاديم، عظيم الرماد، قريب البيت من الباد ولقد كنت في المحافل شريفا، وعلى الارامل عطوفا، ومن الناس قريبا، وفيهم غريبا، وان كنت فيهم مسودا والى الخلفاء موفدا، وان كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين»[١٣٩].

---

(١٣٥) ابن عساكر ج ٧ ص ٢٧.
(١٣٦) وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٩١.
(١٣٧) ابن عساكر: تهذيب ج ٧ ص ٢٦.
(١٣٨) البلاذري: انساب ج ٥ ص ٢٨٩.
(١٣٩) ابن عساكر: تهذيب ج ص ٢٧.

المصادر والمراجع

ابن الاثير: عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٢٣ م.
ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة الجزء الاول.
طبعة طهران

ابن الاعتم: ابي محمد احمد بن الاعتم الكوفي ت ٣١٤ هـ/ ٩٢٦ م
ـ الفتوح الجزء الثاني، طبع دار المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الهند

الاصطخري: ابي اسحاق ابراهيم بن محمد ـ ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م
ـ المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر عبد العال ـ
طبع مصر ١٩٦١ م

البلاذري: احمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م
ـ أنساب الاشراف الجزء الرابع والجزء الخامس مكتبة المثنى بغداد.
ـ فتوح البلدان ـ مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٩.

ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م
ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب الجزء الاول، تحقيق علي محمد البجاوي ـ طبع نهضة مصر.

التوحيدي: علي بن محمد بن العباس، ابو حيان ت ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠م
ـ الامتاع والمؤانسة الجزء الثالث ـ تصحيح احمد امين واحمد الزين طبع بيروت ـ دار مكتبة الحياة
ـ البصائر والذخائر ج ٢ تحقيق ابراهيم الكيلاني، طبع مكتبة اطلس ـ دمشق.

الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م
ـ البيان والتبيين ج ١ حققه حسن السندوبي الطبعة الثالثة ١٩٤٧
ـ رسائل الجاحظ ج ١ تحقيق عبد السلام هارون طبع مصر ١٩٦٤.